الأسس الدينامية للسلوك الإجرامى

بقلم

مصطفى اسماعيل سويف

ماجستير فى الآداب

ا — التفسير الفرويدى . ب — نقد التفسير الفرويدى . حـ — التفسير الدينامى .

إذا كان السلوك الإجرامى هو الذى يتجه ضد الحواجز فى مجالنا الاجتماعى *، فلا شك أن المجال بما فيه من مسالك وأهداف وحواجز ، ينبغى الرجوع إليه فى تفسيرنا للإجرام ، وكل تفسير يبدى الاستغناء عنه لا يمكن الأخذ به . وينبغى الاحتراز من مقدماته . والتفسير الفرويدى من هذا القبيل . يضع العلة داخل الشخصية ، متمثلة فى الميول التدميرية للهى id ، مارة ببضع تعقيدات ثم متبلورة فى عقدة أوديب . فالإنسان مجرم بالفطرة ، وإنما يتدخل المجال الاجتماعى فيفسد هذه الفطرة بما يبثه فى الشخص من خوف من العقاب ، فيتراجع الشخص عن إشباع ميوله الإجرامية الفطرية ، وبذلك يقال عنه إنه يحيا حياة اجتماعية ، إذ يحيا مع الآخرين دون أن يعتدى عليهم .

وهكذا نجد دور المجال الاجتماعى فى تعليل السلوك الإجرامى فى نظر المحللين النفسيين دوراً ثانوياً سطحياً . إذ هو مجرد عنصر يضاف فيقاوم اندفاع الشخصية الأصلى ، كالسطح الذى تنحدر فوقه كرات ديكارت والذى لولا مقاومته لحركتها لمضت دون توقف أبداً . ومن المحقق أنه ليس المهم أن نسلم بوجود البيئة الخارجية إلى جانب الشخصية ، بل المهم أن نفهم أن « الشخصية فى بيئتها » كل لا يمكن تجزئته للنظر فى أحد الطرفين دون الآخر ، أو مع تأجيل الآخر لخطوة أخرى فى البحث ؛ فإن المنهج الذى يتطلب ذلك لابد أن يكون خطأ فى مقدماته ، ولا بد من العدول عنه إلى منهج سواه ، يدخل فى قوانين الحركة خصائص المجال .

وقد قدمت فى مقالى السابق بعض الخطوط الرئيسية التى يمكن أن يقوم عليها مثل

* « الجريمة والتكامل الاجتماعى » بقلم مصطفى إسماعيل سويف ، مجلة علم النفس ، مجلد ٤ عدد ٢

هذا التفسير ، وفى هذا المقال أود أن أكملها ، فقد اقتصرت من قبل على الإبانة عن أن ثمة اختلافاً دينامياً عميقاً بين السلوك الإجرامى والسلوك التوافقى ، لكنى لم أبين كيف يحدث هذا الاختلاف ، وكيف يمضى السلوك الإجرامى . وهذا ما أريد أن أبينه فى هذا المقال . غير أن أصحاب التحليل النفسى ، لهم فى ذلك رأى ينبغى ألا يغفل بمجرد الصمت ، فقد يحسن الصمت أحياناً لتفاهة بعض الآراء أو لانزوائها وقلة خطرها ، لكن النظرية التحليلية ليست من هذا القبيل ، فإن لها من الذيوع حظاً لم تفز به نظرية علمية أخرى (ولو أن الأحاديث عنها كثيراً ما تشف عن خطأ فى فهمها) ، هذا إلى أنها مزيج هائل من الأفكار المتباينة الحظوظ من الخطأ والصواب ، وهذا بالضبط ما يوجب تقليب النظر فيها كلما عرض باحث للنظر فى إحدى الظاهرات السيكولوجية .

الفرويدية والجريمة :

ا — ١) يرى الفرويديون أن الشخصية تتألف من ثلاثة أجهزة ، هى « الهى » و« الأنا » و« الأنا الأعلى » ، وهذه تعمل فى مستويات ثلاث اللاشعور وما تحت الشعور والشعور ؛ والسلوك محصلة تفاعل الأجهزة الثلاث ، ومن ثم فإن كل فعل تساهم فى إنجازه الأجهزة الثلاث ، ولذلك يقال عنه إنه overdetermined . وليس من شك فى أن أفعالنا مختلفة فيما بينها ، من حيث الأهداف ومن حيث النتائج الاجتماعية التى تترتب عليها ، ويبدو هذا الاختلاف بين الأشخاص المختلفين ، كما يبدو لدى الشخص الواحد فى لحظات مختلفة ، وإنما يرجع ذلك إلى أن مساهمة الأجهزة الثلاث لا تمضى دائماً على أساس نسبة ثابتة ، ففى هذه اللحظة قد تكون الغلبة للهى فيمضى المرء نحو تحصيل اللذة ضارباً بمقتضيات الواقع عرض الحائط ، وفى لحظة أخرى قد تكون القيادة للأنا يوفق بين مقتضيات الواقع وبين حاجات الأنا الأعلى والهى ، وفى لحظة غيرها يفرض الأنا الأعلى سيطرته فيشبع فينا حاجة مازوخية ويصدر الفعل متزمتاً يزيد القيود والأغلال من حولنا ؛ ومن الجلى أن السلوك يتردد بين مبدأين هما مبدأ اللذة ومبدأ الواقع ، فإذا تغلب المبدأ الأول وشاعت غلبته فى الأفعال الصادرة عن الشخصية فنحن بصدد سلوك غير سوى وشخصية ضئيلة القدرة على التوافق ، وإذا تغلب المبدأ الثانى فالسلوك سوى والشخصية ناضجة .

وليس من شك فى أن السلوك الإجرامى يندرج ضمن السلوك غير السوى ،

ولكن قبل أن نمضى إلى الحديث عنه مباشرة ، نقف قليلا عند السلوك السوى ليزداد فهمنا لديناميات الفعل عامة .

٢) إن الفعل وظيفة الأنا [١١] ، فإذا لم يقبل الأنا تنفيذ إحدى رغبات الهى أو بعض أوامر الأنا الأعلى فلن يصدر عن الشخصية فعل ما . ولا يستطيع الأنا أن يقف وقفة كهذه إلا إذا كان على حظ طيب من النضج ، بمعنى أن تكون قد اكتملت وظائفه أو كادت ، وترى دى جروت J. L. de Groot أن وظائف الأنا خمس : الإدراك ، وتنمية الذاكرة ، وتمحيص الواقع ، وضبط التعبير ثم الوظيفة التأليفية synthetic function وهذه الوظائف مرتبة ترتيباً تصاعدياً على حسب درجة ارتقائها وموعد ظهورها فى السلوك ، ومن الجلى بذلك أن الوظيفة التأليفية هى آخر الوظائف ظهوراً وأشدها ارتقاءاً . وفى الواقع أنها أداة الأنا للتوفيق بين حاجات الشخصية ومقتضيات الواقع الخارجى والتأليف بينهما فى موقف يسوده الاتزان . وقد ذكر هارتمان [١١] H. Hartmann عاملا آخر يساهم فى جعل السلوك يمضى على أساس مبدأ الواقع ، وهو عامل « التبصر بالمستقبل » anticipating the future وقال إن مبدأ اللذة نفسه يساهم فى إنضاج الفعل وذلك إذا أضيف إليه هذا العامل ، فإننا نتخلى عن اللذة العاجلة التى لا نضمن عواقبها ، على أن ننال فى طريقنا الجديد لذة أخرى مضمونة العواقب . ولذلك يرتضى هارتمان التعريف الذى وضعه فيبر M. Weber العالم الاجتماعى للفعل الناضج أو الفعل الرشيد Rational على حد تعبيره . فهو فعل الفرد الذى يوجه سلوكه تبعاً للغايات والوسائل والنتائج ، وفى أثناء ذلك يوازن بين الغايات والوسائل ، أو بين الوسائل والنتائج ، ثم بين الغايات المتعددة التى يمكن أن تتحقق . ومن الواضح فى هذا التعريف أن جوهر الفعل الرشيد إنما يتمثل فى اتفاقه مع الواقع ، ولا يكتفى هارتمان بذلك بل يفرق بين نوعين من الاتفاق مع الواقع ، فهناك فعل يتفق مع الواقع بطريقة موضوعية وهو الفعل الذى يصل به الشخص إلى شىء معين دون أن يكون قد استهدف هذا الشىء ، ومن هذا القبيل الأفعال الغريزية فى معظم الأحوال . وهناك فعل آخر يتفق مع الواقع بطريقة ذاتية ، وهو الذى يصل به الشخص إلى هدف يقصده ، ويبدو ذلك بوضوح فى الفعل الرشيدى الغرضى . وهو أنضج أنواع الفعل قاطبة .

تلك هى سيكولوجية الفعل السوى أو الفعل الرشيد . ويدخل فى معناه أنه ملائم للصحة النفسية ، إذ هو محقق للتكيف والتقدم . ومن ثم أمكن القول بأن من أهم

شروط الصحة النفسية تقوية الأنا ، بحيث تكون له القيادة وتلتقى فيه الوظائف النفسية الصادرة عن الجانبين الآخرين من الشخصية. ومن الجلى أن الفعل غير الرشيد أو غير السوى يقترن به المرض وسوء التكيف والتقهقر ، وهو الفعل الانفعالى أو الغريزى أساساً. يبدو فيه بوضوح أن الأجهزة الثلاثة للشخصية لا تساهم فيه بأقساط متعادلة ، وأن « الأنا » ضعيف هزيل ، وأن « الهى » له الطغيان بطريق مباشر أو غير مباشر . ومن ثم فالمبدأ المسيطر على السلوك هو مبدأ اللذة لا مبدأ الواقع .

٣) وللسلوك غير السوى أنواع ثلاث : السلوك الذهانى والسلوك العصابى والسلوك الإجرامى. ولم تجر عادة المحللين بأن يفردوا السلوك الإجرامى كنوع قائم بذاته ، بل هم مترددون فيما بينهم ، فبروان J. F. Brown [٩] يدرجه ضمن السلوك العصابى ، بينما يقرر فنيكل O. Fenichel [٧] أن الجريمة قد تصدر عن شخص سوى ؛ ولكن على كل حال ليس المهم ما يقرره هذا المحلل أو ذاك ، بل المهم ما يمكن أن يترتب على المبادئ الأساسية للتحليل النفسى . فإن ديناميات السلوك الإجرامى تختلف عن ديناميات كل من السلوك الذهانى والسلوك العصابى . ذلك أن السلوك الذهانى يكشف عن انطلاق تام صريح لرغبات الهى بغض النظر عن مقتضيات الواقع الخارجى ، ولما كان الأنا هو الموكل بمراعاة الواقع ، فلنا أن نستنتج من ذلك أنه قد اندمج اندماجاً تاماً فى « الهى » ، بينما تلاشى الأنا الأعلى الذى كان من شأنه أن يعارض معظم رغبات الهى ، أو هو لم يتلاش وإنما أصبح شديد القسوة يصب كثيراً من عدوان الهى على الذات ، ومعنى ذلك أنه يصبح هو الآخر خادماً مطيعاً للهى . ولا يحمل الذهانى أى استبصار بحاله فى معظم الأحوال ، وهذا طبيعى ما دام الأنا قد تعطل عن ممارسة وظائفه . وقد ذكرنا من قبل أن الإدراك من بين هذه الوظائف ، سواء أكان الإدراك منصباً على الجوانب الخارجية أم الجوانب الداخلية للموقف . هذا هو السلوك الذهانى . أما السلوك العصابى فأهم ما يميزه ارتباطه بالحصر anxiety [٩] ، إذ يكون الشغل الشاغل للعصابى استخدام كل الآليات الدفاعية التى فى مقدور الأنا للوقوف فى وجه الرغبات الصادرة عن « الهى » والتى توشك أن تبزغ فى مستوى الشعور ، وأن يكون الصراع مشعوراً به أحياناً وغير مشعور به فى أحايين أخرى ، والمهم أنه يعطل إمكانيات الفعل لدى الشخصية إلى حد بعيد . فإذا صدر عنها فعل ما فهو لا يبلغ فى قيمته الإنتاجية ما ينتظر من هذه الشخصية على أساس مستواها الثقافى أو العملى بوجه عام . ومن أهم المميزات التى

نستطيع على أساسها التفرقة بين الشخصية العصابية والشخصية الذهانية احتفاظ الأولى بالاستبصار ، وهذا دليل على أن الأنا لم يترك الميدان نهائياً .

من الجلى إذاً أن السلوك الذهانى يمتاز بإطلاق رغبات الهى دون مراعاة للواقع مع فقدان الاستبصار بحالة الشخصية فى حين أن السلوك العصابى يمتاز بالتعطل عن الفعل نتيجة الانشغال بالصراع ضد رغبات « الهى » ؛ ولا جدال فى أن السلوك الإجرامى لا يندرج ضمن السلوك الذهانى .(*) فإن المجرم لا يلغى الواقع من حسابه ولا يفقد الاستبصار بحاله بل كثيراً ما يشكو قسوة المجتمع ويتمنى لو أنه استطاع التخلص من حياته المليئة بالقلق والاضطراب . ولا جدال كذلك فى أننا لانستطيع أن ندرج هذا السلوك ضمن السلوك العصابى . إذ أن العصابى فى الغالب لا يقدم على تنفيذ رغباته العدوانية والجنسية المحرمة ، وكل ما هنالك أنه يعانى الشعور بالذنب نتيجة التوتر المترتب على الصراع ضدها . ومن ثم فقد يكون مجرماً فى نظر نفسه وقد تقع عليه بعض القسوة من الأنا الأعلى ، لكن هذا الإجرام خيالى ليس له أى تحقق فى الواقع ، وبالتالى فالمجتمع لا يعرف عنه أنه مجرم . وعلى هذا الأساس يقرر شيلدر P. Schilder[1] أن الفرق الواضح بين الجريمة والذنب هو فى أن الجريمة تتم فى مستوى الشعور ، فيكون الأنا مسئولا عنها . فى حين أن الذنب تظل مقوماته بعيدة عن هذا المستوى ، وكثيراً ما يكون هو نفسه بعيداً عن الشعور ، فلا نمارس فى شعورنا إلا نوعاً من الخصام بين مقومات الشخصية ينتج عنه حاجة إلى العقاب كيما يرضى الأنا الأعلى ويعود إلى الوئام ، وهذه الحاجة تنجم عنها بعض المخاوف المرضية Phobia أو الأفكار المتسلطة obsessional .

٤) ولننظر الآن فى سيكولوجية المجرم من وجهة النظر الفرويدية .

يقول فرويد[2] إن المجرم يمتاز بميزتين : أنانية لا حد لها ودافع تدميرى قوى . وعلى هذا الأساس نستنتج أننا بصدد شخصية لم ينم فيها الأنا بحيث يمارس وظيفتين من أهم وظائفه ، وهما الوظيفة التأليفية ووظيفة ضبط التعبير عن الحاجات والانفعالات ولكنه يمارس بلا شك وظائفه الأخرى وهى الإدراك وتنمية الذاكرة وتمحيص الواقع ولو أنه يبدى بعض القصور فى ممارسة الوظيفة الأخيرة إذ يدرك الواقع مجرداً من كثير من قيمه الوجدانية .

(*) هذا القول منا لا يتعارض وما يذهب إليه الدكتور صبرى جرجس فيما يتعلق بالجريمة السيكوباتية . (مجلة علم النفس ، مجلد ٤ عدد ٢)

وهذا القصور فى ممارسة وظيفتيه التأليفية وضبط التعبير يجعله سهل المنال بالنسبة للهى ، يقبل تنفيذ رغباته مقنعة بقناع يكاد يشف عن حقيقتها ، دون أن ينمى فى نفسه أية آلية من تلك الآليات التى يدافع بها الأنا السوى ضد الإفصاح عن هذه الرغبات ، ويستطيع بها السيطرة على الموقف والسير بالفعل فى مسالك أخرى نحو أهداف ذات قيمة اجتماعية رفيعة . هذه الآليات هى وسائل الأنا لضبط التعبير عن الحاجات والانفعالات ، ونذكر من بينها الإعلاء باعتباره من أهمها ، وإذا كان الإعلاء طريق العباقرة والنابغين ، وهؤلاء ليسوا من الأسوياء فى نظر الفرويديين ، فثمة آليات أخرى يستعين بها الأسوياء كالإسقاط والكبت والامتصاص introjection

ولكن لماذا يفقد الأنا القدرة على ضبط التعبير لدى بعض الأشخاص ؟ لكى نستطيع الإجابة عن هذا السؤال يلزمنا أن نسترجع طفولة هؤلاء الأشخاص ، وسنجد عندئذ أن ثمة ارتباطاً قوياً بين فقدان القدرة على الحب وفقدان القدرة على ضبط التعبير ، ومن ثم سنفهم كيف تتعطل لدى المجرم الوظيفة التأليفية مع وظيفة ضبط التعبير .

إن الطفل يحمل فى نفسه ما يحمل البالغ من دوافع . لكنه يعبر عنها تعبيرات يمكن أن توصف بأنها تعبيرات بدائية إذا قيست بتعبيرات البالغ السوى . ونحن إذ نمارس فعل التربية نحو هذا الطفل إنما نحاول أن نحمله على التخلى عن هذه التعبيرات البربرية إلى تعبيرات أرقى منها . وتنفيذ ذلك من جانب الطفل معناه فى البداية أن ينكر ذاته إذ يمتنع عن إشباع بعض رغباته أو يؤجلها على أقل تقدير . ولكى يفعل ذلك لابد أن يتحقق له بعض الاستقرار العاطفى (٦) . فهو يطلب العطف والحب من البالغين القائمين على شئونه . فإذا تحقق له ذلك أمكنه أن يقوم بما يطلب إليه . أضرب لذلك مثلا الطفل الذى نطلب إليه ألا يتبول بمجرد الشعور بحاجته إلى التبول بل ينتظر حتى نذهب به إلى المبولة ؛ لكى نحمله على تنفيذ هذا الأمر بشكل لا يتعارض وشروط النمو السليم يلزمنا أن نقدم له بعض مظاهر حبنا عندئذ ، من ابتسام وتشجيع وما إليهما . فإذا لم نقدم له حبنا هذا فإنه قلما يستطيع تنمية الوظيفة التى نحاول أن نغرسها فيه . ومن هذا يتبين مدى الارتباط بين بذور الحب وبذور القدرة على ضبط التعبير فى الشخصية .

ولكن قد يبدو من ذلك أن حياتنا فى بيئتنا وما نلقاه من المعاملة فى هذه البيئة لا سيما فى طفولتنا المبكرة هى العامل الرئيسى فى اكتسابنا « أنا » يمارس وظائفه بتمامها

وهذا غير صحيح . ففيما يتعلق بوظيفة ضبط التعبير لا يمكن للأنا أن يمارسها إلا إذا توفرت لديه القدرة على الاستعانة بإحدى الآليات الدفاعية سالفة الذكر ، وهذه الآليات مفطورة فينا وليست مكتسبة ، بل إن اختيار الأنا لإحداها دون غيرها لأمر يحدده عامل فطرى ، كذلك ، فإذا لم تتوفر هذه البذور فالتربية لا تجدى شيئاً .

وليست البيئة الخارجية هى وحدها التى تحاول أن تدفع الطفل إلى استخدام تلك الآليات ، فقد تنفرد بذلك فى البداية ، لكن بنمو الأنا الأعلى يبدأ الموقف يتغير ، ويتلقى الأنا الضغط من الداخل كما يتلقاه من الخارج ؛ وللأنا الأعلى مهمتان رئيسيتان ، إحداهما تكوين المثل الأعلى الذى يحتذيه الطفل والثانية معاقبة الشخصية إذا هى جاوزت ما ينبغى لها . كيف يتكون الأنا الأعلى ؟ إذ ارتكب الطفل خطأ فإنه يلقى العقاب من البالغين ، وبتكرار هذه المواقف يظهر لدى الطفل ارتباط عميق بين الخطأ والعقاب على طريقة الفعل المنعكس الشرطى ، يتجلى فى الشعور بالذنب الذى ينتابه بمجرد ارتكابه لأحد الأخطاء وقبل أن يمسه أى عقاب . ويعلم الطفل أن رغباته فى التخلص من أبيه للانفراد بأمه رغبات شريرة يستحق عليها العقاب ، ومن ثم فإنه يقع فريسة للشعور بالذنب ، ويقال عندئذ إن الطفل يعانى من عقدة أوديب . ولابد للطفل من مخرج من هذا المأزق بحيث يرضيه ويلائم الظروف المحيطة به ، ومن ثم فهو يستعين بآلية التقمص identification فيتقمص شخصية أبيه ، ومن هذا الطريق يصل إلى حل مزدوج ، فهو ما دام يستطيع أن يكون كأبيه فلا حاجة له بأبيه ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى نراه يتخذ نحو نفسه الاتجاه الذى كان يتخذه منه أبوه . فكأنه ينوب عنه فى إلقاء الأوامر ذاتها والنواهى ذاتها وهكذا يتكون الأنا الأعلى على أساس عقدة أوديب .

ومن الجلى أن هذه القوة الجديدة ذات جذور عميقة فى الهى ، وعندما تمارس وظيفة العقاب بما تحدثه فى الشخصية من توتر مؤلم نتيجة لمعارضتها لإحدى رغبات الهى ، تتجلى هذه الحقيقة بوضوح أشد . فهى إذ تعاقبنا إنما تشبع فينا حاجتنا إلى العقاب ، وفى إشباع هذه الحاجة نلقى لذة مازوخية . ولما كانت جذور هذه القوة منغمسة فى الهى ، وجذور الأنا نفسه منغمسة كذلك لأنه هو نفسه ليس سوى جزء متحور من الهى ، فليس لنا أن نتعجب عندما تنتصر بعض رغبات الهى ويقبلها الأنا ويندفع إلى تنفيذها رغم عدوانها أو مخالفتها بحال من الأحوال لمقتضيات الواقع الخارجى . حقاً إن الأنا هو أداة التكيف فى الشخصية يحاول أن يضبط حاجاتها

على قدر ما تسمح به الظروف . ولكن ماذا يفعل الأنا وهو يواجه الأعداء من كل جانب ، يواجه عدواً صريحاً متمثلا فى رغبات الهى ، وأعداء متخفين فى داخله هو نفسه وفى ثنايا الأنا الأعلى كذلك . فإذا تمثلنا هذه الحقيقة ، فإن المشكلة تصبح فى نظرنا على هذا الوضع : « لماذا لا نصبح كلنا مجرمين ؟ » وليست « لماذا يصبح البعض مجرمين »[١] .

وفى الواقع أنه لولا درجة من التعادل فى بناء الأنا الأعلى لانقلبنا جميعنا مجرمين ، فهو قد يكون ضعيفاً فى بعض جوانبه فلا يقوى على شد أزر الأنا للوقوف فى وجه الهى ، وهو قد يكون شديد القسوة وليس ذلك فى الواقع إلا دليلا عل زيادة قربه من الهى ، ويساعد على ضعفه أن ينشأ الطفل فى بيئة غير منسجمة ، فإن الخلاف الشديد بين الوالدين مثلا يجعل الأنا الأعلى غير متجانس وبالتالى يكون ضعيفا ، ذلك أن الأنا الأعلى لا يتكون على صورة الأب فحسب بل يحاول أن يضم فى نفسه خصائص مصادر السلطة جميعاً . أضف إلى ذلك أن قسوته الشديدة قد تغريه بالرشوة كما يقول لفينشتين R. M. Loewenstein[٥] فيقنع بما أنزله بالمرء من عقاب قاس فى بعض اللحظات ويتراخى فى اللحظات التالية ، وتنتهز رغبات الهى هذه الفرصة وتتدفق على الأنا .

ولنقف قليلا عند هذا النوع الأخير . فإنه يغلب أن يكون مصدراً لنوع معين من المجرمين ، وهو المعروف بالمجرمين العائدين ، أى الذين لا ينقطعون عن الإجرام أبداً ، كلما ارتكبوا جريمة وزج بهم فى السجن عادوا إلى ارتكاب جرائم أخرى . وقد يقال لتفسير ذلك إنهم يرتكبون الجرائم فى الفترة التى تتراخى فيها قبضة الأنا الأعلى فتقل الرقابة على الأفعال ويسهل على الأنا أن يقبل السعى لتنفيذ بعض رغبات الهى . فإذا ما تم ذلك تنبه الأنا الأعلى وعاد إلى قسوته المعهودة . وقد يقال لتفسير هذا السلوك نفسه أن أولئك المجرمين إنما يندفعون إلى ارتكاب جرائمهم نتيجة لشدة وطأة الأنا الأعلى التى تنعكس لديهم فى حدة الشعور بالذنب وهم بارتكابهم الجرائم إنما يستجدون المجتمع العقاب حتى يرضى الأنا الأعلى قليلا ، ولكنه لا يلبث أن يعود إلى قسوته وبالتالى يفر الشخص إلى جريمة جديدة لينال عقاباً جديداً وهكذا ؛ وعلى أساس هذا التفسير يقترح براون أن نمتنع عن معاقبة هذا النوع من المجرمين وبذلك نترك الشعور بالذنب محتفظاً بحدته لديهم فلا يرتكبون جرائم جديدة[٩] .

وثمة نوع آخر من المجرمين ، يطلق عليهم براون اسم المجرمين الأسوياء ، بينما يطلق عليه فرويد اسم المجرمين النرجسيين . والمقصود بالتسمية الأخيرة الإشارة إلى أن الأنا لدى هذا النوع يكون راضياً عن أعماله كل الرضا فهو لا يلقى فى سبيلها أية معارضة من جانب الأنا الأعلى . ذلك أن هؤلاء الأشخاص ينشأون فى بيئة إجرامية ، فالبارزون من أعضاء الأسرة يحترفون الإجرام ، ويتكون الأنا الأعلى على صورتهم ، فيصبح المثل الأعلى بالنسبة للطفل هو الحياة الإجرامية . وبذلك تتعطل آلية الكبت إلى حد بعيد ، ونكون بصدد شخصية يسودها الانسجام ولا ينتابها أى صراع . وليس من الضرورى أن يكون الطفل ربيب أسرة مجرمة كما ينشأ على هذه الصورة ، بل قد يكون من أسرة سوية لكنه يلقى التشجيع على الإعجاب بالمجرمين ، فيكون هذا الإعجاب سبيله إلى الإجرام .

٥) إلى هنا تكتمل لدينا الأصول الفرويدية لسيكولوجية المجرم . ويرى شيلدر[١] أن الوقوف فى هذا الموضع معناه الوقوف فى منتصف الطريق . وإنما ينبغى إكماله بالنظر فى سيكولوچية القاضى الذى يقسو فى أحكامه ، والمحامى المولع بالدفاع عن المجرمين فمن المسلم به لدى الفرويديين أن الشخص يختار مهنته اختياراً يحقق الرضى لرغباته الدفينة . ومن الواضح أن القاضى الذى يقسو فى أحكامه والمحامى المولع بتبرئة المجرمين ، كلاهما يكشف عن ميول عدوانية ، لا تكاد تفترق عن ميول المجرمين أنفسهم ، غير أن القاضى والمحامى يبديانها فى أشكال مقنّعة لأنهما يستطيعان استخدام الإعلاء .

كذلك يلزمنا أن نفهم الدلالة السيكولوجية للقانون . فهو الأنا الأعلى بالنسبة للمجتمع . وينعى البعض على العدالة ما يوجد من صلات خفية بين بعض القائمين على تنفيذ القانون وبين المجرمين ، ولكن هذه الظاهرة ليست بالأمر العجيب ، فهى انعكاس لما يقوم فى نفوسنا من صلات خفية بين الأنا الأعلى والهى . فإن المجرمين بالنسبة للمجتمع كالهى بالنسبة للفرد .

٦) هذا هو التفسير الفرويدى للسلوك الإجرامى . أما عن العلاج فالفرويديون يشيرون فى الغالب بخطوتين[١] :

أولاهما التحليل النفسى للمجرم ، حتى نطلعه فى وضوح على حوافزه اللاشعورية ونبين له مدلولها ، فتخف وطأتها ويتعدل موقفه .

والثانية العمل على زيادة معلومات القضاة عن اللاشعور ، حتى يكونوا

بصيرين بموقفهم عندما يصدرون أحكامهم .

ويضيف شيلدر إلى هاتين الخطوتين خطوة ثالثة ، هى تعهد الطفولة ، حتى لا تنشأ على الإجرام . ويقول إن هذه الخطوة ممكنة فى ظل الظروف الاجتماعية الراهنة وبالرغم منها !

* * *

قد فرغت الآن من الصورة التى يرسمها الفرويديون للجو الإجرامى بأكمله ، وفيها نتبين الخطوط العامة لسلوك المجرمين ومن يتعاملون معهم والطريق إلى علاج هذه الظاهرة . ولم ترد هذه الصورة عند أحد الفرويديين بالذات ، لكنها تتضمن الأصول العامة للتفسير الفرويدى بغض النظر عن الاختلافات الفردية . فإن الاختلافات بين المؤلفين الفرويديين ليست سوى تفريعات على هذه الأصول . ومن ثم فالمهم أن نقرر رأينا فى هذه الأصول .

ب — ١) إن السيكولوجيا الفرويدية ، كما سبق أن قلت ، مزيج هائل من الخطأ والصواب . ففكرتها العامة عن الحياة النفسية من حيث إنها تيار متصل الحركة والتغير وليست شيئاً ثابتاً متحجراً ، مقبولة بل وتعتبر فتحاً جديداً فى الدراسات النفسية التى كانت من قبل تعانى من جمود النزعة الترابطية . فالنزعة الترابطية قائمة على أساس الفلسفة الميكانيكية التى بلغت أوجها فى القرن التاسع عشر ، وهذه الفلسفة لا تستطيع أن تفسر لنا الحياة بما تمتاز به من تطور ونشوء لجوانب جديدة من خلال « الكل » القديم . وقد بلغت الترابطية قمتها عند جيمس مل ، ثم فطن ابنه جون استيوارت مل إلى قصورها فحاول أن يخفف من غلوائها فيرد إلى الحياة بعض اتصالها لكنه لم يستطع الخروج على الميكانيكية فكانت محاولاته مجرد تلفيق . وفى الحق أن التغير الكيفى فى اتجاه البحوث السيكولوجية لم يأت إلا على يد فرويد ، إذ استطاع أن يبدأ الطريق نحو إقامتها على أساس فلسفة ديالكتية .

ولست أستطيع فى هذا المقال أن أتوسع فى شرح الصلة بين المنهج الديالكتى والبحوث السيكولوجية الحديثة . فأنا مضطر أن أكتفى بالإبانة عن الدلائل العامة لهذا الاتجاه ، مرجئاً الخوض فى التفاصيل إلى فرصة أخرى .

تبدأ حياة المرء فى نظر فرويد كوحدة تامة التجانس تقريباً ، فيكاد يكون مجرد « هى » ، ولكن الاصطدام الملح بينها وبين البيئة الخارجية تتولد عنه قوة جديدة هى « الأنا » وتقف هذه القوة موقفاً وسطاً بين القوتين المتصارعتين فيكون مهمتها

التوفيق . ويستمر الصراع بعد ذلك بصورة جديدة فلا تلبث أن تتولد عنه قوة ثالثة هى « الأناالأعلى » تحمل فى نفسها بعض خصائص الأنا وبعض خصائص الهى. وأهم ما يميز هذه الصورة أنها تمثل لنا الحياة السيكولوجية متطورة غير ثابتة ، وتمثل لنا هذا التطور يمضى بفضل الصراع بين موضوع وضده ، ويتولد عنه من حين لآخر بناء جديد . فهى صورة ديالكتية فى صميمها ، ومن الجلى أنها أقرب إلى واقع حياتنا النفسية (١٣) .

٢) وإذا تأملنا الرأىَ الفرويدى فى كيفية نشوء البناء الجديد ، تبين لنا مدى أهمية هذا الفتح الجديد ودلالته . فانظر مثلا فى الصورة التى أوردتها لنشوء الأنا الأعلى ، فمن خلال التعارض الشديد بين رغبات الطفل ومقتضيات الواقع الخارجى ، يظهر لديه الشعور بالذنب ، وتزداد حدة هذا الشعور شيئاً فشيئاً حتى يتبلور فى عقدة أوديب ، وتزداد وطأة هذه العقدة حتى ينشأ أخيراً هذا الجهاز الجديد، جهاز « الأنا الأعلى » فيساعد على حل الصراع قبل الاصطدام بالخارج وبذلك يوفر على المرء كثيراً من المتاعب . ومن الواضح أن الشعور بالذنب وعقدة أوديب ليسا سوى تغيرات كمية لا تلبث أن تتأدى إلى تغير كيفى ، وذلك بظهور الأنا الأعلى . وفى الواقع أن قانون انتقال التغير من تغير كمى إلى تغير كيفى يعتبر من أهم القوانين الديالكتية وأقدرها على تفسير كثير من ظواهر الحياة ، مما تعجز عنه الفلسفة الميكانيكية التى لاتفسر إلا بالتغير الكمى ولا تعرف للتغير الكيفى معنى ، ولا للتداخل بين الكم والكيف أى مدلول .

٣) غير أننا إذ نسجل للفرويدية هذه الوثبة فى تاريخ البحوث السيكولوجية ، ونقرر أن فرويد افتتح بها طريقاً لا يزال الباحثون يأملون الخير الكثير من السير فيه ، لا ينبغى أن نتغاضى عن حقيقة تعتبر فى الواقع على جانب كبير من الأهمية . ذلك أن فرويد الذى افتتح الطريق لم يستطع السير فيه إلى ما بعد البداية بكثير ، حتى لقد كاد أن يعطل بخطواته التالية أثرخطواته الأولى . إذ هو لم يستطع التخلص من آثار الماضى بجموده المعهود .

تبدو حياة المرء من بدايتها عملية دائمة الحركة والتغير ، على نحو ما بينا ، لكنها لا تلبث أن تجمد وتتحجر . فنجدنا بإزاء ثلاث قوى أو أجهزة ، لكل جهاز طبيعته الخاصة مما يضفى لوناً خاصاً على كل ما يصدر عنه ؛ فلا يصدر الهى إلا كل ما هو شرير مناف للآداب والتقاليد ، ولا تصدر الأنا الأعلى إلا كل ما يعارض رغبات

الهى ويقف فى سبيلها ، ولا يصدر الأنا إلا كل ما ينفع فى حفظ كيان الشخصية . وعلى هذا الأساس تتحدد أفعالنا وأفكارنا . وعندما ينظر المحلل الفرويدى فى دلالة أى فعل أو خاطر يحاول جهد استطاعته أن يرده إلى حاجة صادرة عن أحد هذه الأجهزة ، ولا يكاد يقيم وزناً لضغط البيئة الخارجية ، اللهم إلا بطريق غير مباشر . إذ يتخطى ظروف المشكلة الحاضرة ويسرع نحو الطفولة وهناك يبحث فى بعض الظروف التى كانت محيطة بالشخص إذ ذاك . ثم يقف عند هذه الصورة عن الطفولة ويتقدم بها نحو تفسير الموقف الحاضر ، وكأن الطفل قد تحجر منذ هذه اللحظة فهو لا يعرف إلا طريقة واحدة للسلوك ، كان يسلك بها وهو صغير والآن يسلك بها وهو كبير وقد اخترق الزمن من الطفولة حتى الشباب دون أن يتعامل مع العالم المحيط به ، وهكذا تتوقف الحركة الديالكتية منذ الطفولة ، ويتوقف معها ظهور الجديد فى حياة الإنسان . وهذا هو السبب الذى من أجله قلت إن فرويد لم يستطع المضى طويلا فى الطريق الذى افتتحه . ومن المحقق أن لدى البالغ من صلابة البناء النفسى ما يفوق كثيراً صلابة البناء النفسى للطفل ، ولكن ليس معنى ذلك أن البالغ قد أغلق من حوله قوقعة تعزله عن العالم الخارجى ، بل أقصى ما يترتب عليه أن يمضى التأثر والتأثير بينه وبين البيئة الخارجية على أسس جديدة ، ولا يمكن أن ينقطع هذا التفاعل. ومن المحقق كذلك أن الشخص البالغ يتقبل الحاضر على أساس ماضيه ، فهو يمثل نموذجاً معيناً فى فعله وانفعاله وإلا لما استطعنا أن نتحدث عن « الشخصية » ، ولكن هل يعنى هذا أن ماضينا الذى نحمله فى نفوسنا جامد كالماضى الذى نتصوره باعتباره فعلا قد وقع ؟ كلا ، فإن ماضينا نفسه يتغير بما يتسرب إليه من الحاضر ، وليست المسألة مسألة إضافة للحاضر إلى الماضى ولكنها إعادة تنظيم للماضى على ضوء الحاضر ؛ والشخصية لا يمكن أن توصف بالجمود وكل ما هنالك أنها توصف بالتماسك وشتان بين الصفتين . على أن وطأة الماضى ليست هكذا ثقيلة دائماً كما تصورها المبادئ الفرويدية . فمن الأشخاص من يستطيعون إحداث ثورة فى حياتهم فيتغير اتجاههم ويتبدل موقفهم فى الحياة تبدلا تاماً تقريباً ، حتى ليبدو أن ثمة هوة بين طفولتهم وشبابهم . وهذا ما لا يمكن تفسيره على أساس الأصول الفرويدية العامة (إذا استثنينا قدرة الفرويدية على التبرير) .

ومن الدلائل الهامة على أن الفرويديين لا يدركون مدى التداخل بين الشخصية والبيئة المحيطة بها ، إيمانهم بأن التحليل فى العيادات من شأنه أن يجلب الشفاء

للشخصية المريضة ، لأنه يكشف لها عن حقيقة حوافزها اللاشعورية والمدلول العميق لهذا العصاب الذى وقعت فريسة له ؛ ومن الحق إن المحلل يحاول الاتصال بأقرباء المريض وأعضاء أسرته ليحل له بعض المشكلات ويمهد أمامه السبيل إلى التفاهم ، ولكن هذا العمل لا يلقى منه تلك العناية التى يتجه بها إلى سبر أعماق هذا المريض لإفهامه الدلالة اللاشعورية لحاجاته وأفعاله . ولولا أن العناية بتغيير البيئة تعتبر فى نظر الفرويديين مسألة على هامش عملهم كمحللين لما وجدنا أحدهم وهو بول شيلدر يقترح لعلاج مشكلة الإجرام ، التحليل النفسى للمجرمين . فإن من يقترح هذا العلاج لا بد أن يكون مقتنعاً بأن الدوافع الداخلية للجريمة ، تلك الدوافع الصادرة عن الهى ، هى أهم جوانب الموقف ولا يمكن أن يعدلها فى الأهمية أى جانب آخر . والنتيجة المنطقية لذلك أن نستنتج أن الإجرام مشكلة فردية ، وليس ثمة ما يمكن أن يوصف بأنه موجات إجرامية تجتاح المجتمعات فى بعض الظروف ، كما أننا لا نستطيع أن نتحدث باهتمام كبير عما يمكن أن نسميه بالظروف الاجتماعية الدافعة إلى الإجرام . فانظر إلى أين ينتهى الفرويديون . !

٤) على أننا إذا دققنا النظر فى التفسير الفرويدى للإجرام بوجه خاص ، وجدناه يوقع المجرم تحت وطأة جبرية جبلية لامفر له منها . ذلك أن الأنا إذا ما هاجمته حاجات عدوانية من الهى ، فطريقه إلى التغلب عليها الاستعانة بالآليات الدفاعية كالكبت والإسقاط والإعلاء و . . . إلخ . لكن القدرة على الاستعانة بهذه الآليات فطرية ، فإذا لم يحملها بعض الأشخاص فهم بلا شك سيقفون عاجزين أمام وابل الحاجات العدوانية الصادرة من أعماقهم اللاشعورية ، وسرعان ما يصبحون مجرمين لأنهم لا يمكنهم أن يكونوا غير ذلك . وقد بينت من قبل أن ضعف الأنا على هذا النحو مصدر هام من مصادر الإجرام . فهل صحيح أن الإجرام مفطور فى معظم المجرمين ؟ وهل صحيح أن معظم المجرمين إذا تغيرت بيئتهم وتغير المجتمع من حولهم لا يمكنهم أن يحيدوا عن السلوك الإجرامى ؟ هاهنا مظهر آخر لنكوص الفرويدية عن النظرة الديالكتية السليمة . فبدلا من أن ترى الشخصية جزءاً فى كل يضمها وبيئتها ، وتعلل السلوك على أساس تغيير العلاقات بين الجزء والكل الذى يضمه ، تعزل الشخصية على أساس أن لها طبيعة خاصة متحجرة وتنظر فى هذه الطبيعة باحثة عن علة ما يصدر عنها ، ومن الجلى أن مثل هذه النظرة لا بد أن تنتهى إلى جبرية ميكانيكية ، وهذا الضرب من الجبرية لا يتفق

مع واقع الحياة النفسية . أضف إلى ذلك أن النتائج العملية للتسليم بهذه الجبرية تبدو على جانب كبير من الخطورة .

* * *

ولو أنني كنت فرويدياً وعرضت لي جريمة كجريمة جينو الذى قتل أمه[٨] ، لانتابتني الحيرة فى البداية ، كيف أعلل هذه الجريمة وهى معارضة فى جوهرها لعقدة أوديب . فما كان ينبغى لجينو أن يقتل أمه بل كان يلزمه أن يقتل خليلها إيلو وعندئذ كنت أرى فى الجريمة تحقيقاً دقيقاً لما تقضى به هذه العقدة . على أنني لن أستمر فى حيرتى كثيراً ، بل لن ألبث أن أقول إن هذه الجريمة أوديبية أيضاً برغم ما قد يبدو عليها من معارضة لأوديب ، فقد أحب الولد أمه بشدة ، وكان فى أعماقه اللاشعورية يريدها خليلة له ، لكنه لا يستطيع أن يصارح نفسه بذلك ، فيستعين بآلية « الاتجاه العكسى »reaction formation ليوهم نفسه أنه فى الواقع لا يريدها ، بل هو على الضد من ذلك ينفر منها .

جـ — غير أن جريمة جينو جديرة بأن تفتح لنا الطريق إلى تفهم ديناميات السلوك الإجرامى ، دون أن تظل مجرد مثال لتحقق عقدة أوديب أو عقدة أورست . وقد اخترتها على أساس التعريف الأولى الذى ارتضيته فى مقالى السابق وهو القائل بأن الجريمة اعتداء على الحواجز فى المجال الاجتماعى . فإن جريمة جينو تعتبر على هذا الأساس صورة مكبرة للجريمة . وقد يروق للبعض أن يعترض على هذا الاختيار ، قائلا إن هذه الجريمة جريمة نوعية ، بل إنها فى عالم الإجرام تعتبر جريمة شاذة . فقلما نجد مجرماً يقتل أمه ، أو أباه أو أحد أفراد أسرته المقربين ، وإذا فعل ففى ظروف خاصة جداً ، وما ينبغى أن نعمم حكم الأحداث التى تقع فى مثل هذه الظروف . ثم لم هذا الوقوف عند القتل بوجه خاص ، وعالم الإجرام زاخر بأنواع أخرى من الجرائم ، أفيجوز لنا الوقوف عند نوع واحد من الجرائم لاستخلاص أحكام لا نلبث أن نعممها على سائر الأنواع ؟ هذا الاعتراض واعتراضات أخرى مماثلة لا شك أنها قد تبزغ فى بعض الأذهان .

ولكن بزوغها رهن بالاتجاه الفلسفى لهذه الأذهان . فالواقع أن القارئ ذا الاتجاه الديالكتى لن يقيم هذه الاعتراضات . لأن النظرة الديالكتية لا ترى طبائع ثابتة تختلف فيما بينها اختلافاً نوعياً ، بل الكل أمامها عمليات تمضى على أساس قوانين الحركة التى لا تتغير ، ومن ثم فهناك تجانس عميق بين جميع مظاهر السلوك

الإجرامى على اختلاف أنواعه ، كالتجانس بين حركة الكواكب وحركة سقوط الحجر ، كلاهما يمضى على أساس القوانين نفسها ، دون أن يغير من ذلك اختلاف الأحجام أو أن سقوط الحجر يتم فى عالم ما تحت القمر(١٢) . وكذلك عندما ننظر فى جريمة جينو لن يضلنا ذلك أبداً ، لأنا لا نفهم للسلوك دلالة إلا أن يتم فى تنظيم معين ، فكل دلالة الأم أنها جزء بارز من هذا التنظيم يمكن تحديد بروزه بقدر أثره فى السلوك . وما دمنا نقدر بقية أجزاء التنظيم على أساس آثارها السلوكية أيضاً بحيث يكون مرجعنا الأخير هو التنظيم أو المجال ككل ، فقد أشعنا التجانس بين الجرائم على اختلاف أنواعها ، والمهم أن نتبين مبادىء التنظيم من حيث إنه عملية كبرى تتضمن فى نفسها عدة عمليات صغرى يؤثر بعضها فى بعض . فكيف يمضى هذا التأثير ؟

إن الموقف الذى انتهى بقتل جينو لأمه يتلخص فيما يلى :

نشأ جينو فى بيئة فقيرة فقدكان أبوه خبازاً يكسب قوته بعرق جبينه ؛ وكان جينو أكبر الأبناء وكان مدللاعند أمه ، وكان كذلك يحب أباه فيلازمه فى المخبز إلى ساعة متأخرة من الليل ، وكان الأب خشناً لكنه كان محبوباً لدى أفراد الأسرة . وكانت زوجه تصغره بأربعة عشر عاماً وكانت تلقى لديه الحب والتدليل . وقد مرض الأب فجأة ثم مات ولم يكد الإبن يتجاوز الحادية عشرة . ولما كان أكبر إخوته فقد وقع عليه عبء الحلول محل أبيه فى المخبز رغم سنه المبكرة . وكانت أمه تشعر بوطأة هذا الموقف عليه فيدفعها ذلك إلى إظهار الكثير من مظاهر عطفها فتقبله وتعد له لبناً وبيضاً عساه أن يقوى على احتمال هذه المشاق التى أتته مبكرة . ولكن ظهر فى ذلك الوقت عمه إيلو ، فلم تلبث الأم أن شغلت به عن أبنائها ، وحرمتهم مظاهر عطفها . وحاول جينو أن يستعيد حبها بالتودد إليها فلم يفلح وازداد إهمالها له ولإخوته ، بل وأتاحت للعم الدخيل أن يقسو عليهم ؛ وذات مساء أحضرت لعباً فاندفع جينو اندفاعة الطفل يمسك باللعب ويسألها أليست هذه اللعبة له ، لكنها نهرته بشدة ودفعته بعيداً ، عندئذ أقسم بينه وبين نفسه ليقتلنها . وكان ذلك فى السنة التالية لموت أبيه . ومضت الأيام دون أن ينفذ وعيده ، لكنه لم يكن ينساه ولم تكن الأحاديث والهمسات حول سوء سيرة أمه لتتيح له أن ينساه ، وقد انقلبت المسألة فى ذهنه دفاعاً عن شرف الأسرة . وقد ظل فى تردد وتفكير وإقدام وإحجام مدى خمس سنوات . وأخيراً فاجأها ذات مساء فى حجرة نومها والكل نيام ، وطعنها بالسكين حتى قضى عليها .

ثم خرج إلى الطريق هادئاً ، وأخبر أول شرطى قابله بجريمته وقاده إلى حيث توجد الجثة . ولم يكن يبدو عليه أى أثر للخوف أو الأسف . وقرر القس الذى زاره فى السجن أن هذا الفتى لم يقتل أمه فحسب ولكنه مسرور غاية السرور لفعلته هذه .

هذه صورة تخطيطية للموقف الذى نمت فيه جريمة جينو ، ينقصها كثير من نبض الحياة كأية صورة ، ولكنها تحتوى على إشارات لكل جوانب الموقف الجوهرية . والجدير بالانتباه فى حياة جينو هو هذا التغير الفجائى الذى يعتورها بوفاة أبيه وما جرى بعد الوفاة . فقد تغير الموقف تغيراً تاماً تقريباً ، فبعد أن كانت البيئة المحيطة بالطفل تستجيب لرغباته وتشبع حاجاته أصبحت شديدة الصلابة تضن عليه بالراحة وتقف فى سبيل رغباته وتعارض حاجاته معارضة صارخة . أى أنها كانت فى البداية بيئة مرنة فأصبحت بوفاة أبيه بيئة صلبة . وتقوم هذه التفرقة بوجه عام على أساس موقف البيئة من حرية الحركة ، ومن المعلوم أن أية حركة تصدر عنا إنما تكون مدفوعة بالاتجاه نحو تحقيق الاتزان ، فإذا عارضت البيئة حركتنا فهى إنما تحاول أن تبقينا فى حالة اختلال للاتزان ، وهذا نفسه منشأ للصراع بيننا وبين البيئة حتى يتحقق الاتزان على حسابنا أو على حساب البيئة أو بفعل متكامل بيننا وبين البيئة يتضمن التغيير فى الطرفين . ويختلف صراعنا وتختلف نتائجه على حسب صلابة البيئة من ناحية وقيمة حركتنا من ناحية أخرى من حيث صدورها عن حاجات عميقة فى الشخصية أو حاجات سطحية . وما دمنا نتحدث عن البيئة الصلبة التى واجهت جينو فيلزمنا أن ندخل فى حسابنا أنه كان من قبل يحيا فى بيئة يكاد يعتمد عليها اعتماداً تاماً فى إشباع جميع حاجاته ، حتى أبسط الحاجات وأشدها تفاهة ، ما دام يلقى التدليل الشديد من أمه ويلازم أباه فى معظم الأوقات ؛ فإن هذه الحقيقة من شأنها أن تبين لنا إلى أى مدى رأى جينو أن البيئة صلبة معادية ، إذ اتجه إليها يطلب الكثير كما اعتاد أن يطلب ، فكان حرمانها إياه حرمانا من الكثير . ولذلك نجده شديد الانتباه لجزئيات هذا الحرمان ، فقد حرم من قبلات أمه وحرم من الملابس النظيفة ومن البيض واللبن ومن اللعب أيضاً ؛ غير أن جينو لم ينفك يعيد المحاولة كلما حرم من إشباع حاجة لم يمنعه ذلك أن يطلب إشباع حاجة أخرى ، وفى كل مرة كان يرجع خائباً ، إلى أن كان ذات مساء فوجد أمه عائدة من الخارج تحمل بعض اللعب التى ابتاعتها ، فاندفع إليها يمسك اللعب ويسألها ألم تشترها له ولإخوته فما كان من الأم إلا أن نهرته بشدة وأمرته أن يترك اللعب ويمضى بعيداً ، عندئذ وضح له أنه محروم

من كل شئ وتغيرت الدلالة الدينامية للأم فبعد أن كانت وسيلة إلى أهداف تشبع حاجاته أصبحت حاجزاً يحول دون بلوغه هذه الأهداف ، لذلك نجده يفكر فى قتلها ، ليزيلها من سبيله .

ومن الواضح على هذا الأساس أن موت الأب ليس بذى أهمية فى ذاته ، إنما المهم هو ما ترتب على هذا الموت من تغير فجائى فى حالة المجال السلوكى ، ومن ثم فإن هذا الموت يعادل فى دلالته الدينامية أحداثاً أخرى تعقب نفس النتيجة ، فالانفصال الفجائى بين الوالدين قد يؤدى إلى مثل هذه الصلابة إذ يأوى الأطفال إلى بيئة لا عطف فيها ولا رعاية . وملاقاة الفشل فى عدة مواقف يشيع فى المجال صلابة أيضاً ، ولو أنه هو نفسه دليل على وجودها لكنه يزيدها بلا شك ، وكذلك اعتلال الصحة أو الإصابة بعاهة أو الفقر الشديد إذ تمتنع الوسيلة لإشباع حاجات كثيرة ، وقد تنجم الصلابة عن اضطهاد دينى أو عنصرى أو سياسى ، كل هذه الأسباب وغيرها لها نفس الدلالة الدينامية ، إذ تغلق معظم إمكانيات الحركة .

على أن القول بأن المجال الذى عاش فيه جينو قد شاعت فيه الصلابة عقب وفاة أبيه ليس بكاف لتعليل سلوكه العدوانى ، وتوجيه هذا العدوان نحو أمه بوجه خاص فقد ذكر لفين أن المجال الصلب قد يستتبع ضروب السلوك الاستبدالى . وقد يستتبع الفرار والتشرد وقد يستتبع الاندفاع نحو مجالات أخرى كإخوان السوء ، أو الاندفاع نحو تعاطى الخمر ، والأمثلة على ذلك كثيرة . فلم لم تعقب الصلابة فى حالة جينو سلوك هذا المسلك أو ذاك وأعقبت العدوان ؟

إن عدوان جينو على أمه دليل واضح على أنها بدت فى مجاله المنفذ الأوحد نحو الحرية فى إشباع حاجاته . ولو أنه شهد فى المجال منافذ أخرى لاندفع من خلالها . ولا يمكن أن يقال إن سلوك الأم نحو أبنائها قد استتبع ، بطريقة موضوعية بحتة ، قتلها ، وإلا فلماذا لم يقتلها ابنها الآخر ، لماذا انفرد جينو بقتلها ؟ ليس من شك فى أن مجاله قد انتظم بشكل فريد ، وانتظم بشكل لا يسمح بالحركة إلا فى هذا الاتجاه العدوانى نحو أمه .

فلنعد إذن إلى تاريخ الشخصية لنرى دلالة هذا التاريخ . وأوضح ما فى هذا التاريخ أن جينو حرم حرية الحركة بشكل واضح . لكنه لم يحرم من إشباع حاجاته ، واستمر ذلك إلى أن مات أبوه . فقد كان يقضى معظم أوقاته ملازماً لأبيه ، ووجود الطفل فى مجال البالغين يجعله تحت رقابة مستمرة ، وبالتالى تحت توجيه مستمر ،

فحركاته التلقائية لا تكاد تذكر إلى جانب حركاته الموجّهة ، ويبدو المجال أمامه محدد المعالم بحدود بارزة لا يستطيع أن يتخطى أحدها وإلا سمع الأمر بالرجوع أو لقى العقاب . وفى هذا المجال الذى لايتيح حرية الحركة كانت حاجاته سرعان ما تجد الشبع ، فأبوه على خشونته وجفافه يحب أبناءه والأم تدلل هذا الابن بوجه خاص . ومعنى ذلك أن مجال جينوكان على الوضع التالى : المنفذ الأوحد إلى الحرية والشبع هو رضى أبى وأمى . ومن ثم فقد تعهد فى نفسه أخلاقاً متزمتة وهى النتيجة المباشرة لمثل هذا المجال . وليس معنى ذلك أن جينو جعل يفكر ويقيس ويستنتج أن أنسب أنواع الأخلاق لمثل هذا المجال هى الأخلاق المتزمتة ، إنما هى نتيجة دينامية مباشرة ، فهى جزء من الطريق إلى رضى أبيه وأمه وبالتالى إلى حريته وإشباع حاجاته ولا شك أن هذا التزمت الخلقى كان يلقى من المحيطين بالصبى كل تشجيع كما هى العادة ، فهو ابن مطيع مؤدب لايقدم على ما يغضب أباه وأمه إلى آخر هذه الصفات التى تلقى المدح عادة مع أنها فى الغالب مظهر لحقيقة دينامية ينبغى العمل على استبدالها بقسط معتدل من الحرية .

وقد يروق للبعض أن يصف مثل هذا المجال بالصلابة ، لكن هذا غير صحيح . فإن صلابة المجال لاتكون إلا بمعارضته لحاجات الشخص كما هى الحال فى المجال بعد وفاة الأب . أما قبل ذلك فقد كان المجال صديقاً جداً يمتاز بدرجة مرتفعة من المرونة على نحو ما وصفنا . وفى الوقت نفسه يمتاز بضآلة حظه من الحرية .

مثل هذا المجال شأنه أن يعقب حقيقة سلوكية على جانب كبير من الأهمية يمكن التعبير عنها بأنها ضعف الخيال . فقد نبه بروان J. F. Brown (١٠) على ضرورة التفرقة بين ما يسميه « أبعاد الواقعية » reality dimensions المختلفة فى السلوك . ذلك أن السلوك لا يمضى فى مجال الواقع الخارجى دائماً ، فقد يكون سلوكنا ضرباً من التفكير يجرى فى أذهاننا ولا يمس الواقع إلا بطريق غير مباشر ، وقد يكون ضرباً من أحلام اليقظة وقد يكون حلما نمارسه فى النوم ، وهذه كلها ألوان مختلفة من السلوك من حيث درجة تأثيرها فى الواقع العملى المحيط بنا وتأثرها به ؛ ومن أهم جوانب الاختلاف بينها درجة صلابة الحواجز التى قد تقوم فى سبيلها . فإن الحواجز التى قد تقوم فى سبيل حركتنا فى الواقع العملى أشد صلابة من الحواجز التى قد تقوم فى سبيل حركتنا الفكرية والحواجز التى قد تقوم فى سبيل التفكير (من قوانين منطقية أو نظريات علمية أو . . . إلخ) أشد صلابة من تلك التى قد

تقوم فى سبيل انطلاقنا فى أحلام اليقظة ، وقد بين فرويد أن هذه الأحلام تخضع لرقابة أشد مما تخضع له أحلام النوم . وليس من اليسير علينا أن نحدد فى كل لحظة درجة واقعية السلوك الذى نسلكه ، فهو فى الغالب مزيج من مختلف الدرجات ، فنحن إذا حاولنا أن نحل أبسط المشكلات العملية لم نقتصر على المحاولات الحركية بل نستعين فى الغالب بالتفكير ونحلم بين لحظة وأخرى بما سنلقاه من راحة أو ما سنقوم به من أعمال بعد الفراغ منها ، على أن هذا المزج متوقف دائماً على حالة البيئة والشخصية . فالبيئة الصلبة من شأنها أن تدفع إلى كثير من إعمال الفكر وقد تكون من الصلابة بحيث تدفع إلى الأحلام دون رجاء فى تحقيقها ، وهكذا تقل نسبة الواقعية فى سلوكنا ويقال إننا خياليون متطرفون فى الأحلام . والبيئة المرنة التى لا تقف فى سبيل حركاتنا من شأنها أن تزيد نسبة الواقعية فى سلوكنا . فإذا أصبحت بالغة المرونة كما يحدث لدى المدللين والمترفين ازدادت درجة الواقعية فى سلوكنا بشكل مخل وتضاءلت قدرتنا على التفكير والابتكار ، حتى إذا واجهتنا أبسط المعضلات وقفنا أمامها جامدين لانعرف كيف السبيل إلى حلها .

وقد كانت بيئة جينو أثناء حياة أبيه من النوع الذى ينتج هذا العجز عن التفكير والابتكار ؛ على أننا إذا عبرنا عن ذلك بازدياد نسبة الواقعية فى سلوك مثل هذا الشخص ، فينبغى أن نتنبه جيداً إلى أن نتيجة هذه الزيادة قد تبدو مناقضة لهذه التسمية ولو أنها ليست كذلك فى الحقيقة . هذه النتيجة هى أن مثل هذا السلوك شديد الواقعية من شأنه أن يعقب عجزاً فى إدراكنا للواقع الخارجى إدراكاً موضوعياً . إذ نرى فيه مشبعاً لحاجاتنا مطيعاً لرغباتنا فإذا بدت منه معارضة أو صلابة فهذا ما لم نكن نتوقعه منه لأننا لم نكن ندرك أن له حظاً من الصلابة أصلا . ولما كان سلوكنا شديد الواقعية كما حدده تاريخنا ، فإننا نصطدم بهذا الواقع الصلب محاولين إزالة ما يبدو منه حاجزاً أو سداً فى طريقنا .

وهذا هو المأزق الذى وقع فيه جينو . فقد تغير المجال أمامه على حين فجأة ، كان من قبل مرناً قليل الحرية . فهو يمنع الانطلاق ولكنه يشبع الرغبات (وربما كان هذا أسوأ مجال يمكن أن يوضع فيه شخص ما ، فإنه حائل دون ظهور النشاط وظهور الدوافع إلى هذا النشاط ، وبالتالى حائل دون نمو مستويات السلوك غير الواقعى) . فأصبح صلباً لايجيب أية رغبة ولا يشبع أية حاجة . لكن الحاجات متعددة ولا تفتأ تدفع جينو إلى محاولة إشباعها على طريقته ، وقد زاد هذه الحاجات حدة

شعوره بحرمانه منها فقد كان على وشك أن ينال كل ما يطلب بعد وفاة أبيه لكن الموقف لم يلبث أن تغير بظهور العم إيلو ، وقد كابدها هذا الصبي بهذا الشكل الحاد دون إخوته لأنه طلب أكثر منهم بعد وفاة أبيه ، إذ شغل مكانه فى العمل وما يستتبعه من مشقة وبالتالى استحق أكثر من إخوته . وهو بالفعل كان قد بدأ ينال أكثر منهم . فلما وقفت أمه موقفها المعارض كان معنى ذلك أنها حرمته أكثر مما حرمت إخوته . وبالتالى فدوافعه للصراع ضد هذا الموقف أكثر عدداً وأشد قوة من دوافع إخوته . ولذلك نجده ينفرد دونهم بالعدوان عليها . ولايجد مخرجاً له إلا العدوان . فقد تحول ما كان من قبل وسيلة نحو إشباع حاجاته ، إلى حاجز دون هذا الإشباع . وليس ثمة منفذ إلى إعادة التوازن إلا من خلال هذا الطريق الذى يشغله هذا الحاجز . لأنه كان من قبل منفذه الأوحد .لابد إذاً من إزالة الحاجز .

ومع ذلك فإن جينو عندما اتجه إلى إزالة الحاجز ، اتجه بسلوك غير واقعى أولا فتوعدها بالقتل بينه وبين نفسه ، لأنه بالطبع لم يكن عاجزاً عجزاً تاماً عن ممارسة السلوك غير الواقعى ولكنه كان ضئيل القدرة إلى حد بعيد ، ومثل هذا التفكير نفسه يشف عن هذه الحقيقة إذ ينم عن عجز عن إدراك أى إمكانية أخرى للحل . وهذا الاتجاه إلى التفكير والتردد خمس سنوات عن تنفيذه دليل واضح على قيام الحواجز فى مجال جينو ، مما منعه عن الانطلاق فى الفعل مباشرة . وقد قلب فيرتام F. Wertham(٨) هذه المشكلة رأساً على عقب ، إذ تساءل كيف تترجم الخواطر إلى أفعال ؟ مع أن الأصل أننا نتجه إلى الفعل فإذا تعطل لقيام بعض الحواجز فى سبيله انطلقنا مع الفكر أو الخيال فإذا تمكنا من القضاء على الحواجز والدافع ما يزال قائماً ، عدنا إلى الفعل من جديد .

وهذا ما حدث لجنيو . فبمجرد أن وضحت دلالة الأم كحاجز فى مجاله ، وأقصد بالدلالة هنا الدلالة الدينامية أى التى تملى على الشخص فعلا معيناً ، أقول بمجرد ظهور الأم كحاجز واتجاه الصبي إلى إزالته بزغت فى سبيل هذا الفعل حواجز أخرى ، مما أدى إلى انطلاقه فى مستوى غير واقعى . فما هى هذه الحواجز وماذا تم بعد ظهورها حتى انهارت وانطلق الصبي يمارس فعل القتل ؟

لقد تغير الموقف من حول جنيو تغيراً متكاملا ، فأصبح يراه « كله » عدائياً ، ومن ثم نجده يفكر فى قتل عمه كما يفكر فى قتل أمه . ولكنه لم يفكر فى قتل العم إلا بعد أن فكر فى قتل الأم كثيراً ، مما يدل على أن عداءه لعمه جاء على سبيل

الانتشار من الأم ، وانتشار الاتجاه الوجدانى مسألة مألوفة ، ويتم ذلك بسهولة فيما بين الجوانب المتصلة من مجالنا ، فإذا اشتد مقتنا لأحد الأشخاص فنحن فى الغالب نمقت أصدقاءه ، وإذ اشتد حبنا لأحد الأشخاص فإننا لانلبس أن نحب الجو الذى يحيا فيه ، وقد كان « المجنون » يمر على ديار ليلى « يقبل ذا الجدار وذا الجدار » اشتد نفور جينو من أمه حتى لقد انتهى به الأمر إلى النفور من البيت وكان بوده لو لم يعد إليه ، وكان ذلك قرب مقتلها ، .والمهم إذاً أن عداوة جينو لعمه إنما صدرت عن عداوته لأمه . فالأصل فى الموقف هو أمه وليس عمه ، لم يكن ينتظر من عمه الكثير وبالتالى فلم يحرمه عمه من الكثير. وعلى الضد من ذلك كا ن موقفه من أمه . لذلك كانت هى المسئولة عن حالة الحرمان التى يعانيها ، وكانت هى العقبة الكبرى فى سبيله ، ولذلك فقد اتجه إلى إزالتها دون سواها .

ونعود فنتساءل لماذا لم يقتلها مباشرة ؟

ليست الحواجز دائماً حواجز مادية ملموسة ، ولكنها قد تكون معنوية ، والعبرة بما قد تنتجه من أثر فى السلوك . وليس من الضرورى أن تكون الحواجز المادية أشد صلابة من الحواجز المعنوية ، فقد نتغلب على كثير من العقبات المادية بشتى الطرق ، ولكننا نجبن ونتراجع أمام بعض التقاليد والاعتبارات الخلقية . وعلاقتنا بهذه الاعتبارات والتقاليد وشتى جوانب البناء الأيديولوجى الذى يكمل مجالنا السلوكى علاقة دينامية مباشرة ، ولا يتوقف تراجعنا على نوع من المناقشة الفكرية والاقتناع الذهنى بقيمة هذه الجوانب أو ضغطها ولكننا نمارس هذا التراجع مباشرة كلما حاولنا أن نصطدم بها ، وقد نناقش أنفسنا بعد ذلك وقد ننتهى إلى رأى فى ضرورة تخطيها ولكن ذلك يدخل فى المجال عوامل أخرى . والمهم أن جينو لم يستطع المضى إلى القتل الفعلى مباشرة لأنه اصطدم بهذه الحواجز ، بدليل أن حركاته التالية متجهة إلى تحطيم هذه الحواجز ، أو التغلب عليها بأية وسيلة .

إن الموقف الحاضر يدفعه بقوة هائلة إلى التغلب على هذه الحواجز فأى طريق يسلك إلى هذا التغلب ؟ إن ماضى جينو قد جعل منه شخصية متزمتة فى أخلاقها ، لا يقدم على حركة تلقائية وإذا أقدم فعلى شريطة أن يرضى المحيطين به ، ويحقق رغباتهم . وهذا مظهر واضح لاندماجه الشديد مع الآخرين فى « نحن » أى فى كل يضم أعضاءه بشدة . ومن اليسير على الطفل أن يتبين أن رضى الأسرة عنه معناه رضى الجميع ، وأن غضب الأسرة معناه غضب الجميع ، ومن ثم فإن « النحن »

لا تضمه وأسرته فحسب بل تضمه مع الجميع .

وقد فتح السبيل أمام جينو إلى تنفيذ وعيده لأمه بهذا الهمس الذى كان يدور بين أعضاء الأسرة وأبناء الحى عن سوء سيرتها ، وكثيراً ما استمع جينو إلى هذا الهمس فآذاه فى أعماقه ؛ وأقول إن الطريق فتح أمام جينو إلى ارتكاب الجريمة لأن هذا الهمس معناه بدء تصدع النحن من حوله ، فالأم فى ناحية والمجتمع فى ناحية ، وجميع معالم تردده مدى السنوات الخمس إنما تبين سير الصراع بين هاتين القوتين . إلى أن انتهى بتغلب المجتمع وتخلص الابن من الأم نهائياً .

وقد مضى هذا الصراع فى عدة مراحل جعلت تتراكم بعضها فوق بعض ، والصبى يزداد عداؤه لأمه وانحيازه للمجتمع ، وبعد أن كان يدافع عنها فى البداية حتى لقد استحق غضب أعمامه الآخرين وعقابهم أصبح يهاجمها فيحاول الاطلاع على أسرارها ويحاول إهانتها . بدأ جينو بأن جعل يتنبه لأحاديث المجتمع حول سيرتها السيئة ويصدقها ، ثم هو يندمج فى أيديولوجية المجتمع أكثر وأكثر فيتذكر كل ما سمع وما قرأ عن الشرف وكيف أنه أقيم شىء فى الحياة ، وهو يقبل هذه الآراء ويعتبرها معبرة عن وجهة نظره . فيرى أن أمه أساءت إلى شرف الأسرة ، ويتقدم عداؤه لأمه جنباً إلى جنب مع اندماجه فى الأيديولوجية الاجتماعية ، فيعلن عداءه للنساء عامة لأنهن شيطانات وهن أصل البلاء وأس الفساد ؛ وهكذا يزداد اقتراب جينو من المجتمع وعداؤه لأمه ؛ وقد ساهم فى ازدياد حدة هذا الصراع شدة ارتباطه بأمه بحيث كانت جزءاً مكملا للأنا لديه نتيجة اعتماده الشديد عليها ، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى أن المجتمع نفسه الذى كان يجذبه بعيداً عن أمه كان يربطه إليها كذلك ، إذ يخجله بأحاديثه عنها وكأنه يعيره بسيرتها لأنه ابنها ، وأبناء الحى يتجنبونه لهذا السبب نفسه ، وهكذا وقع الصبى فريسة للصراع بين عدة قوى متعارضة ويمكن تلخيص الموقف فى أنه صراع بين ارتباطه بأمه بكل مقومات هذا الارتباط من جوانب عاطفية وجوانب أيديولوجية ، وبين الضغط الاجتماعى الذى يحاول أن يجذبه إليه ويجعل منه عدوا لأمه ، فإذا أضفنا إلى ذلك حاجاته التى كانت تلقى الإهمال عند الأم تبين لنا إلى أى مدى كان حتما على الصراع أن تنهزم فيه الأم . وقد ظلت تنهزم يوماً بعد يوم والفتى يزداد عداء لها ، ويتضح ذلك فى ازدياد تفكيره فى كيفية قتلها . إلى أن تم لهذه الحركة الكمية أن تنقلب إلى حركة كيفية ، فتخلص من الأم بقتلها ؛ وذلك عندما تحولت القواعد الخلقية والاعتبارات

الاجتماعية فى نظره إلى وسائل تحضه على قتلها بعد أن كانت حواجز تمنعه من ذلك. ومن ثم فهو عند ما يقتلها إنما يرتكب ما يتفق وخصائص الخلق الكريم ، وهو يؤدى واجبه الذى يتلخص فى الدفاع عن شرف الأسرة . ومن الجدير بالذكر أنه يدعو الله أن يهبه القدرة على قتل أمه ، وأنه يقول لها وهو يقتلها ، لقد لوثت شرف الأسرة » ، ويقول للمحقق أول ما يقول إن أباه قد توفى من زمن غير يسير ، وإن أمه جعلت تحسن معاملة رجل غريب ، وجدير بنا أن نذكر أيضاً قول القس عنه إنه لم يقتل أمه فحسب ولكنه مسرور لفعلته تلك . وفعلا كان القتل خطوة جلبت الراحة إليه ، إذ انتهى من هذا الصراع الممض .

ماذا نستخلص من هذه الدراسة ؟ أو ما هى المبادئ الدينامية التى مضى على أساسها سلوك جينو ؟ ارتفعت درجة صلابة المجال ، وجينو يحمل حاجات لا يستطيع التنازل عن إشباعها ولا يمكنه إشباعها إلا من خلال منطقة واحدة فى هذا المجال ، وقد تحولت هذه المنطقة إلى حاجز ، فاندفع لإزالتها .

هذا هو جوهر موقف جينو ، فهو الأساس الدينامى الذى يقوم عليه سلوكه الإجرامى ، وهو الأساس الدينامى للسلوك الإجرامى بوجه عام . فحيثما كان المجال صلباً وبالشخص حاجات دافعة لا يتنازل عنها فالنتيجة عدوان على أحد جوانب هذا المجال تبعاً لديناميات الموقف أعنى لتفاعل القوى فيه . ويتعين اتجاه هذا التفاعل تبعاً لتاريخ الشخصية . ومن ثم فلا يمكن أن نفسر وقوع أية جريمة معينة إلا بالنظر فى الأحداث التى أحاطت بها بوجه خاص ؛ وهكذا نقول إن الأحداث الجزئية التى ملأت حياة جينو تابعة لتاريخ شخصيته المحدود بظروفه الخاصة التى لا تتكرر هى نفسها عند سواه ، لكن هذه الأحداث نفسها ليست إلا وجهاً يختلف اختلافاً ظاهرياً مع الأحداث الجزئية المحيطة بأية جريمة أخرى ، وفى الوقت نفسه يتحد معها فى الأساس الدينامى القائم وراء كل منهما .

وقد بينت من قبل أن صلابة الموقف ، وهى حقيقة دينامية ، لا تنجم عن وفاة الأب فحسب ، ولكنها قد تنجم عن أسباب أخرى متعددة ، وليس المهم هذه الأسباب فى نوعيتها ، إنما المهم دلالتها الدينامية . وما دامت قد اجتمعت على دلالة واحدة ، فليس لتعددها وزن كبير . كذلك الحاجات التى تدفع إلى طلب الإشباع ، ليس المهم مضمونها ، فقد تكون حاجة أوديبية فعلا وقد لا تكون كذلك ،

قد تكون ذات مضمون يختلف عن ذلك كل الاختلاف . لكن المهم هو مدى تأثيرها فى السلوك . ويتبين من ذلك كم نحن محقون فى الوقوف عند جريمة جينو واعتبارها أنموذجاً للسلوك الإجرامى نستخلص منها أسسه الدينامية ؛ ولو أننا وقفنا عند أية جريمة أخرى واتخذنا نفس المنهج فى البحث لبلغنا هذه النتيجة نفسها ، ما دمنا لانقيم وزناً لجزئيات السلوك إلا من حيث دلالتها الدينامية . وليس صحيحاً ما يقال من أن الحدث الفردى قد يشذ عن القانون العلمى ، فإن فى صميم القانون معنى الجبرية المطلقة ، فإذا لم نبلغها بهذا القانون أو ذاك فذلك مرجعه إلى نقص فى البحث وليس ضرورة لازمة للقانون . وإذا كنا نسلم بهذا المبدأ فأى جريمة يمكن أن تكون طريقنا الذى ننفذ منه إلى الكشف عن القانون . وإذا كنا قد أحصينا من بين عيوب التفسير الفرويدى جبريته فذلك لأنها جبرية ميكانيكية ترى الإنسان عبداً لجبلته مدفوعاً بماضيه الطفولى فى خط مستقيم ، أما الجبرية التى نقبلها فهى جبرية ديالكتية تتعين على أساس التفاعل بين الشخصية والبيئة ، وهو ما يتفق مع الواقع ، إذ من الجلى أن التفسير الذى قدمناه يتفق والقاعدة السيكولوجية الكبرى التى تقول ، إن السلوك دالة الشخصية فى البيئة .

مصطفى اسماعيل سويف

المراجع

1. "Problems of Crime", P. Schilder. ("Psychoanalysis Today" ed. by S. Lorand, New York 1945.)
2. "Juvenile Delinquency", J.T. Broadwin. ("Psychoanalysis Today".)
3. "Dostœvsky & Parricide", S. Freud ("The Year-Book of Psychoanalysis", vol. II, 1946, ed. by S. Lorand.)
4. "An Unwelcome Child and Her Death Instinct", Hannah Ries. ("The Inter. J. of Psychoa." 1945, Parts 3 & 4.)
5. "A Special form of Self-Punishment", R.M. Lœwenstein ("The Year-book of Psychoanalysis", vol. II 1946.)
6. "On The Development of the Ego and the Super-Ego", J.L. De Groot. (The Inter. J. of Psychoa.", 1947, Part I.)
7. "The Psychoanalytic Theory of Neurosis", O. Fenichel; 1945,
8. "Dark Legend", F. Wertham; London, 1947; V. Gollancz.
9. "The Psychodynamics of Abnormal Behavior", J.F. Brown; 1940,
10. "Psychology & The Social Order", J.F. Brown, 1936, McGraw-Hill Co.
11. "On Rational & Irrational Action", H. Hartmann; ("Psychoanalysis

and The Social Sciences", 1947; an annual ed. by G. Roheim.
12. "The Conflict Between Aristotelian & Galileian Modes of Thought in Contemporary Psychology", K. Lewin. ("A Dynamic Theory of Personality", by K. Lewin, 1935; McGraw-Hill Co., New York.
13. "Freud & Marx", R. Osborn. London 1937.

Summary

THE DYNAMIC PRINCIPLES OF CRIMINAL BEHAVIOR

By

M.I. Soueif M.A.

The Freudian conception of criminal behavior:

From a Freudian point of view there are two kinds of abnormal behavior: psychotic behavior and neurotic behavior. The most distinguishing characteristic of psychotics is their lack of insight. The most distinguishing characteristic of neurotics is their anxiety. They seem unfit for action, because of their unconscious conflicts.

Criminal behavior cannot be thought of exactly as a subvariety of these two kinds. Criminals do not lose insight. Besides, they almost accept their actions without experiencing such neurotic conflicts. In fact, criminal behavior is the resultant of a personality with an undeveloped Ego.

Psychoanalysts distinguish two other kinds of criminals: neurotic criminals and narcissistic ones. Those known as neurotic criminals are compelled to commit crimes because of their acute guilt feeling. They commit crimes just to be punished; hence they are relieved of their painful feeling. While narcissistic criminals are those who have developed a criminal super-ego.

Therapy :— 1) Almost all psychoanalysts accept the idea that punishment fulfils a masochistic need in the criminal and relieves him of his conflicts. Therefore, they say that criminals must not be punished, just to make them always retain their conflicts.

2) They say also that psychoanalysis of the criminal will relieve him of his unconscious conflicts and consequently from his criminal trends.

Criticising the Freudian Conception:

1) It is a matter of fact that Freudism marks a qualitative turn in the history of psychological research. Psychology was, until Freud, established upon mechanical philosophy. Associationism was the most distinguished system. But Freud established his system upon a dialectical philosophy, thus getting a deeper insight into our psychic activity.

2) But it cannot be denied that Freudism did not proceed along the track it had inaugurated. On the contrary, it fell back to mechanism.

Thus it speaks of psychic systems that have a certain static nature.

3) Exaggeration of the value of childhood as a decisive epoch deter mining our present and future, is another aspect of Freudian regression to mechanism. Freudism almost denies the deep interaction between the personality and its environment.

4) Consequently, a problem such as criminality seems to Freudians an individual one. After all it is a matter of unadjustment among the systems of the personality. The solution can be attained by psychoanalysis!

5) The Freudian conception of criminality falls into mechanical determinism. Thus the ego is unable to fight against the id wishes because it has not got the inborn aptitude to use the defense mechanisms.

A Contribution to the dynamic conception of criminality :

The author has chosen the facts stated by F. Wertham in his "Dark Legend", about the crime of young Jino who assasinated his mother. The most distinguished fact in the story of that boy is the death of his beloved father and afterwards, the sudden change of his always caring mother, because of a new love. The result was a sudden solidity that came all over the behavioral field of the boy.

Before the death of the father, Jino lived in a field that permitted satisfaction for almost all his needs, at the same time permitting a very little portion of liberty. He could always satisfy his needs but through the region of his parents. Such a field is against the liberty of activity. Besides, it does not help to develop one's activity in the unreal levels (thinking, daydreams and dreams), stated by J.F. Brown. Consequently, behavior lacks a very great amount of flexibility. Dynamically speaking, such genotypical facts can be caused by many other phenotypical ones, such as disease, bodily defects, the sudden disjunction of the parents and persecution, racial, religions or national.

The father died when Jino was about eleven years old. Jino turned to his mother, the only remaining region through which he could satisfy his needs. The mother responded at first to all his needs. But soon she refused him totally. Every time he tried to get back her care, he failed. At last his situation changed qualitatively; he got a new insight. Mother who was a means to satisfaction turned to be a barrier. The boy had to fight directly against that barrier. He did not see any other possibility for a solution because of lack of flexibility in his behavior.

Thus we can state the dynamic principles of criminality as follows :—

If the environment is too solid and there are deep needs that cannot be satisfied through it, and cannot be got rid of, agressive behavior results. It goes against the barriers according to the dynamics of the situation. We cannot determine its direction without consulting the history of the concrete case.